سر النبوغ في الادب

لمصطفى صادق الرافعي

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرُّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا وأديناها بمعنى مما بين الانسان والحيوان لكانت في العبارة هكذا: ما أنت أيها الابله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون الا نبيٌّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ذلك ان التركيب الذي يَبِينُ به الانسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصه فأفرغه الله في جلده ووضع في رأسه ذلك القفل الالهي الذي حبسهُ في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية واقفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الانسان فالكون عنده لغوٌ كلّهُ ليس فيه الا حقائق يسيرة ثم لا تفسير لهذه الحقائق الا من طبيعته هو، فالماء أدق تفسير فلكي.. للشمس والنور والهواء وما يجيء منها وجوفهُ اصح تعبير جغرافي ... للكرة الارضية وما تحمل وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم

فأساس الذكاء عالياً ونازلا هو التركيب الطبيعي لا غيره، لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت زادت الدنيا صورة أو نقصت فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدَّة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان وما نشهد من ذلك في أحوال الناس من الفطنة الى الذكاء[1] إلى الالمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ الى العبقرية وهي مشتقات من ألفاظ اللغة لاحوال دقيقة من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الانساني سجدة طويلة، اذا هو تأمل في حكمة الله ومرَّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — ان هذا الوجود الذي يحمل اسرار الالوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الابدي وان الارض التي تحمل أسرار الانسانية هي كرة طائرة فيما مُدَّ لها من الوجود وان كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه. وان الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم الا كما يُرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه، فيصعد التدرج الى الكبير الى الاكبر وينزل إلى الصغير الى الاصغر ثم لا معنى لما صعد الا عما نزل، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء الى السر الحقيقي ان العقل الانساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً ....

(١) عندنا ان الفطنة في اللغة دون الذكاء تقابل ما عند الحيوان من التنبه. والذكاء اتوقد والتهاب

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج . فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كوجود المحيط وأما آخر فكالشمس ثم غيرها كالارض ثم الرابع كالانسان ثم يأتون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة . ولا علة لكل هذا الا ما هيأت الاقدار « بأسبابها الكثيرة » لكل انسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشُعبها ، ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرمل الكرة الارضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد كما ينبعث العملاق المارد بعظامه الممتدة واوراحه المشبوحة من غدته النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكي مثله انما هو كالجيش من جيش بازائه يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند وسلاحهم من القوة والضعف واحوالهم من النظام والاختلال وقرة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم وما يكتنفهم من صعب أو سهل وما تتظاهر عليهم من الحوادث والاقدار ثم التوفيق الذي لا حيلة فيه ان وقع في حصة احدهما واستقر أو وقع هوناً وطار للآخر . وبنحو من هذا كله تكون المفاضلة اذا وازنت بين اثنين من النوابغ في حقيقة نبوغهما

فالنابغة خلقٌ من خالقه يصنع كما ترى بأقدار الله اذ هو قدر على قومه وعلى عصره وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) : صلةٌ يدٍ جعلتها مالاً وتركت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي ، وبهذا لا يستطيع العالم ان يزيد الدنيا نابغة الا اذا استطاع ان يزيد في الكواكب نجماً فيصنعهُ . وهبهُ صنعهُ من الكهرباء فيبقى ان يحمله واذا حمله بقي ان يرفعهُ الى السموات وهبهُ قد رفعهُ فيبقى كل شيء . . . يبقى عليه ان يقحمهُ في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفالك

وكما يخلق النابغة بتركيبه تخلق لهُ الاحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً وان كانت لا تلائمه هو منتفعاً فانه هو غير مقصود الا من حيث انه وسيلة أو آلة تكابد ما تحتمل في أعمالها وتؤتى لها لتأخذ على طريقة وتعطي على طريقة ؛ وبذلك يرجع التقدير الى ان يكون العقل النابغة دليلاً للناس من الناس انفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الاحسن

واذا كان الجمال يشتعل في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط الى الدنيا في تفكيرهم والمثل الاعلى هم الداعون اليه والاشواق النفسية هم موقظوها والعواطف هم المحررون لها وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن . اذا كان هذا كله فهذا كله انما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الازلية المدبرة وأنهم أدواتها في هذه المعاني فما هي أعمالهم اكثر مما هي أعمالها وقد يظن الناس ان النابغة يلتمس القوى المحيطة به ليبدع منها والحقيقة انها هي تلتمسه لتبدع به

وبعدُ فالنابغة كأنه انسان من الفلك فهو يخزن الاشعة العقلية ويُريقها وفي يده الانوار والظلال والالوان يعمل بها عمل الفجر كلما أطلقت على الناس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمة تلقي اليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها وتوحي اليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الخلق . والطبيعة خلقها الله وحده ولكنها ليست معقولة الا بالعلم وليست جميلة الا بالشعر وليست مصورة الا بالفن ؛ فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فناً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لاشياء من هذا الفن ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياة اكبر واوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله ان يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل فانها وان كانت آلاماً وأحزاناً الا ان معناها الخيالي هو سرور تحمله للناس اذ كان من طبيعة النفس البشرية ان تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهي كأن المؤلم ليس هو الألم وانما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء عنصره العبقري ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً . . . . ثم ليؤتي الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الاعلى من الفكر . ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صوّر نفسهُ وصاغها او كأنه قطعة من الحسن قد تجسدت في أسطر ، ولابد ان تشعرك الجملة أنها قذفت وحياً إذ لا تجدها الا وكأن في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي وانا أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الاذهان الملهمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمل اختراع المعنى وأبداع سياقه وتُضحى البيان عليه واشراقه فيه وما أتيح له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسره في النفس — يخيل اليّ من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله

وأنت لو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام وأجريتهُ في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم الا أذهانهم يكدونها وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . . رأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما انت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الانسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض

والعبقري هو أبداً وراء ما لا ينتهي من جمالٍ أولهُ في نفسه وآخره في الجمال الأقدس الذي يسبح في هذه النفس الجميلة السامية . فما دام فيه سر العبقرية فهو دائب يعمل بمزق حياته في صفحات النور تمزيقاً يجتمع منه أدبهُ وما أدبه الا صورة حياته ، وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدع منه فلا يزال متألماً إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله ومتألماً إن لم يعمل لأن تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ الا في عمل . وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال

الاقدس تمرد العشق في حامله إذ هما صورتان لامر واحد كما سنشير اليه . فكلُّ ما تجده في نفس العاشق المتدله مما يتراءى به الى جنونه وهلاكه تجد شبيهاً منه في نفس العبقري فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها إذ قد اتخذت حياتهُ شكلها الفني من ذوقه هو وحده فليس يتبع طريقة أحد بل هو طريقة نفسه(١) . وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع اليه ويستمدُّ منهُ . وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنىً بل رسولاً من الجمال أُرسل اليه وحده ولا يزال يشعر في كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلاً هو بمدُّ في انتظارها . وكلاهما متى ظفر بشيءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه الى الظن انهُ ربح من الكون ربحاً لم يكن لهُ من قبل . وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع وبين حريتها التي في خياله وأمله كأنَّ عليه في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع او العيش . وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يحسُّ تجعل نظرته في الاشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المشرقتين . فاذا مدَّ عينيه في شيءٍ جميل فهناك سؤال وجوابهُ ووحيٌ وترجمةٌ ومرور من يقظة الى حلم وانتقال من حقيقة الى خيال

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد به لا تستقرُّ معهُ على رضا ولا يبرحُ يُسلِّط الإعنات عليها ويستغرقها بالهموم السامية وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه وان كان عند الناس قد أُدرك غايات وغايات . فطبيعة كل عبقري تجهد جهدها في العمل لتخرج به مما يستطيعهُ الناس فاذا تأتَّى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منهُ وبلغ وأعجز اندفعت طبيعتهُ الى الخروج مما يستطيع هو .... كأنهُ خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً وكأنهُ نفسهُ وفوق نفسه في حال . وهذا سرُّ حيرته وسموه كما انهُ سرُّ ألمه وحيرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت اذا قرأت للاديب البليغ التامّ صاحب الفكر والاسلوب والذهن الملهَم فانك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك ويتسدَّد فيها ويهتزُّ بها طرباً

(١) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب في الادب من قولهم مدرسة امرىء القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ترجمة حرفية لقول الاوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان فان الادب اذا كان تقليداً فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعاً فليس الا ابداع مدرسة تكون بالعلم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف . انما تطلق هذه الكلمة على المذاهب المتقررة في الفنون الجميلة وفي هذا لا تطلق في الادب العربي الا على فئتين فقط هم البصريون والكوفيون على ان كلمة مذهب هي المستعملة في هذا وهي اسد منها اذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأي وذهب اليه فكأنه عن تحليل صاحبه وتابعيه . اما تسمية مجموعة الالهامات التي مرت في نفس نابغة من النوابغ بالمدرسة فتسمية مضحكة باردة اذ الالهام بصيرة محضة وما هو مما يقلد وانما شأنه شأن ما على الارض في عناصر التكوين التي تأتي منها النبوغ . وقد قال علماؤنا طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هي الكلمة الصحيحة لان علينا فاهم العمل واسلوبه يخرجه بها من يتوجه ويقف بها من يقلد اذا سر العمل ليس من الناس ابعض وهو شيء في الروح والبصيرة . وهو في العبقري امر لا يستطيعه انسان وبعد في انسان يحصره

وإعجاباً فتقول لا أحسنَ من هذا ثم تؤمل مع ذلك أن تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . . كأنهُ وإن تناهى الى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية. وهذا غريبٌ ولكن لا دليل على العبقرية الاّ الغرابة دائماً فهي نظامٌ لا نظامَ فيهِ لأنها طريقةٌ لا طريقة لها . وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلةً وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هدايةَ فيها الاّ من الروح واذا كان الفنُ قدرةً متصرفةً في الجمال فالعبقرية قدرة متصرفةٌ في الفن ، والنابغة كالمتكيّس[1] الذي معهُ قوى العقل ويريد أن يزداد على قدرهِ منها ولكنّ العبقريّ كالالمعيّ الذي معهُ قوى الروح ويريد ان يزيد الناس على قدرهم بها ، وذاك مرجعهُ الفكر الدقيق الباحث وهذا مناطه البصيرة الشفافة النافذة وهي اغرب الغرائب في الانسان إذ هي الجهةُ المطلقة في هذا المخلوق المقيّد وبها تتسع النفس لادراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات وفيها تتحول الاشياء من نظام الحاسّة الى نظام الروح فيُسمعُ المرئيُّ ويبصر المسموعُ وتخلع الاجسام الفاظاً وتلبس الاصواتُ اشكالاً ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيهِ بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب او الشاعر المحدَّث[2] عمل فنه الزائد عن الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه وهي التي نسميها الإلهام

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطعُ في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ولا رسم تنظر فيهِ ولا علم ترجع اليهِ ؛ وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسّالتهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ؛ وحاسةُ التدبير في النمل الذي يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها . وكثيراً ما يجيء الاديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع واوصافها بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقري هو عندي فوق العلم لا أقول بدرجة ولكن بحاسة

وبالالهام يكون لكل عبقري ذهنهُ الذي معهُ وذهنهُ الذي ليس معهُ اذ كانت له من وراء خياله قوةٌ غير منظورة ليست فيهِ ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه هينةً منقادةً كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلّى عليهِ

وليست تتصل هذه القوة الاّ بتركيب عصبي تكون فيهِ الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها وهي في العبقريين خصائص مَرَضية في الاعم الاغلب بل لعلها كذلك دائماً ليتيسر بها

---

(١) من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد ان يزداد على مقداره (٢) هذه هي الكلمة القديمة التي تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا كأن الاشياء تحدثه باسرارها او تحدثه بها قوة اعلى من القوى الانسانية ولذا كان معناه عندهم ذلك انه يتلقى عن سمع من الغيب. ومن ذلك ما زعم العرب من ان لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه وهو وصف دقيق للعبقرية الا انه بالفاظ الجاهلية وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان . قل وروح القدس معك . وفي كلمة « روح القدس » . تنطوي فلسفة العبقرية كلها

العبقري في حالة خفيفة من الموت . . . يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانيه من مضض الفكر وثقله ، ثم تكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منه . فالتركيب العصبي في دماغ العبقري انسان على حياله مع انسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ، ومن ثمّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح يتقد وينطفىء لانه آلة نور تعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليه ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليه ، وتكون مضيئة فتنطفىء بسبب ليس منها ولا من نورها وهي على كل هذه الاحوال لا تملك منها حالة .

فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتلي فيجد في العمل ويبذل الوسع فيه ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض به فيضاً وكأن في طبيعته الربيع المتفتح طول ايامه بالجمال اذا هو في حالة اخرى يتماسك ويتربص لا يحصل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء ، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعنّ له جديد كأنما حبس عنه فكره أو نبا طبعه أو هو في قيظ طبيعته وخفوقها وضجرها ثم لا تمضي على ذلك الا تورة وساعة فاذا على صفته هو التوقد والتسعر . . . واذا هو منبعث من القوة والنشاط . وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة فلا يكاد يمضي لنحو منه حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فاذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ به ويأتيه غير ما كان قد أراده كأنما يُلقى عليه فهو يستملي .

وقد يبتدىء معنى ثم يُقطع عنه بطارىء من عمل او حديث ثم يُعاوده فاذا معنى آخر واذا جهة من الفكر هي جهة الابداع والاختراع في موضوعه واذا هو انما كان يُجبر بذلك العارف عن معناه الاول جبراً ليدعه الى الاكمل والاصح ، وأيقن انه لو كان استوفى على ما بدأ لأسف وضعف رجاؤه عما غيره أقدر عليه كأن هذه القوة الخفية التي تلهمه تتقحم له ايضاً بأساليبها الغريبة . وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً الى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثيقفاً من ها لقيفاً من هناك[1] ثم ينظر فاذا هو قد مُسح لوح خياله ويطلب المعنى فلا يتاح له ويتمادى فلا يزيد الا كداً وعسراً كأنما ذهب إلهامه في شيطان من شياطين الابدية[2] وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ورقي درجاتها حتى يبلغ المكانة التي يستشرف منها الالهام ويتعرض فيها بروحه ويتصدى لنفحات الوحي والكيفيات الغيب يعلم ان كل معنى بديع يأتي به في صناعته انما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد في

---

(١) يقال هو ثقف لقف اي سريع الفهم لما يلقى اليه ولكنا استعملناه كما ترى بمعناه تهكماً بين الامرين
(٢) قالوا كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : تمر علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر . وذكروا انه كان من عمله اذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الاودية فينقاد له الكلام . وأشعارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتلب بها نافره ، والحقيقة انها علل من النفس تعارض حالة الالهام الى أن تزول وتنقطع النفس منها أو أسباب تحقق ولا تفهم شيئاً الى أن تتغير بأسباب ملهمة

الكائنات كلها ظاهراً في شيء منها بالضوء وفي أشياء بالالوان وفي بعضها بالحركة وفي بعضها بالانسجام وفي بعضها بالروعة والفخامة وفي غيرها بنسبة الهيئة وظاهراً في حالات كثيرة بانه غير ظاهر ، ونعرف كذلك أن هذا المعنى الغامل الذي لا يحد هو الذي ينقل الوجود كله الى نفوس النوابغ[1] متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سره. واذا تم النابغة أن يترجمه لا يرى شيئاً واذا اراد حجة عليه لم يستطع للجلاء عن بيانه بكلمة واذا التمس التعريف به لم يجد الا ما يشهد له إحساسه وقلبه . وهذا الذي يتقدح في أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيض لكل منهم بسبب من قراءة او مشاهدة او حالة او مراس ، هو هو بعينه الذي ينقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم في معنى على وجه جميل ، ومن ثم كان النابغة في الادب لا يتم تمامه الا اذا أحب وعشق وكان الادب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الادمغة هو الذي كان يسميه علماء الادب العربي بالتوليد وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا الى حقيقته ولا ادركوا من سره شيئاً واحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : انما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لا يشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استطراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او اصرف معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن. هذا كلام ابن رشيق وليس لهم احسن منه وهو مع ذلك تخليط لا قيمة له وليس فيه من موضوعنا الا لفظ التوليد

ومما لا تنقضي منه عجباً في تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة انا نرى أكثر الفاظها كانها لا ينقصها شيء من دقائق المعنى في اصل وضعها على حين لا يفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كانها منزلة تنزيلاً عمن يعلم السر وقد نبهنا الى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وافضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته . وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل حتى ان أكثر الفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفض العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها[2] . وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء الا اخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التي اشاروا اليها في كتب الادب — هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من اسرار النبوغ ولا نجد ما يسد في ذلك مسدها او يحيط احاطتها ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل اسرار المعنى اذ هي بلفظها نص على حياة الكون في الذهن الانساني وانه يتخذه وسيلة لابداع معانيه كما يتخذ سر الحياة بطن

(١) هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ولكنا في هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدناه في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقري في جماع امره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقه مادة السلك وبين الاخر الذي طريقه روح الجو . فكلاهما هو الاخر ولكن احدهما لا بد له من طريق مسلوك والاخر طريقه كل الطرق أي فوق أن يقيد بطريقة

(٢) على هذا المعنى وكشف اسراره في آيات قرآنية كتابنا الجديد «اسرار الاعجاز»

الأم وسيلة لابداع موجوداته ، وان المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في اسلوب من الحياة وان هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر واخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها جزء من بعض كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ؛ وان النبوغ ليس شيئاً الاّ التركيب العصبي الخاص في الذهن ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقةٍ سواء هي وطريقة الولادة الحيية التي مرجعها كذلك الى تركيب خاص في احشاء الانثى ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز . واذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان فالحكمة تنص على ان اذهان النوابغ اذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ، وهذا صحيح اذ هي اقوى الاذهان على الارض في الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام اسرع اليها من غيرها بل هي طبيعة فيها . وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق وعنها في ذلك هو قانون وجودها ، ثم هي قائمة على الاحتمال والاعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وادمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ، وكل ذلك من طباع الانثى وهي النابغة فيه بل هي النابغة به

فسر النبوغ في الادب وفي غيره هو التوليد وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه الى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات الرصد الفلكي الى السماء واجرامها . وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره كما يزيد الماس على الزجاج والجوهر على الحجر والفولاذ على الحديد والذهب على النحاس ، ثم هذه كلها تبعث نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ويتفاوت النوابغ انفسهم في قوة هذه الملكة فبعضهم فيها اكمل من بعض وتمدُّ لهم في اختلاف احوال ازمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ؛ وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة وبذلك تتنوع الاساليب ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل اديب يفهم الدنيا وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقيُّ اكثر من حقيقته

وقد سئل مصور مبدع بماذا يمزج الوانهُ فتأتي ولها اشراقها وجمالها ونبوغ معانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : انما امزجها بمخي . وهذا هذا فان الالوان عند الناس جميعاً ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكان الوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولهُ العبقري فانك لتجد الشعر في وزن خاص به يدل عليه ويتمم الغرض منهُ ويضيف الى معانيه أنقاً من الجمال وحسنه والى صوته نغماً من الموسيقى وطربها . فما اشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة ان يكون وزناً شعرياً لهذا النابغة بخاصته . الا ترى انك لا تقرأ الاديب الحق الاّ وجدتَ كل ما يكتبهُ يجيء في وزن خاص به حتى لا يخرج عنهُ مرة او تزيد انت فيه وتنقص الاّ ظهر لك انهُ مكسور ...؟

والذهن العبقريُّ لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقب يستخرج منها او يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا

ويأخذ من ثمَّ ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها الاّ اشباؤه هو وأمثاله .. اما الذهن العبقري فليس له من المعاني الاّ مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوّع وتتساقط له اشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسحره وقوة تأثيره مقالات عدة لاولئك الاذكياء فنسخها نسخاً وجعلها منهُ كالشموع الموقدة بإزاء الشمس . فاذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع الاّ ان تقول لها :
يا حصاة الميزان في احدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الاخرى .... ؟

وقد عرف الادباء جميعاً ان كاتب فرنسا العظيم اناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها وهكذا خمس مرات الى ثمان ويقدّم ويؤخر من موضع الى موضع ويحسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً وما هو منها في شيء ولا احسب الاوربيين انفسهم تنبهوا الى سر هذه الطريقة وانما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فاذا قرأ كتابة حوّلها فكره وابدع له منها من غير ان يعمل في ذلك او يتكلف له الاّ ما يتكلف من يهز اليه بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيّاً. فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وانهُ لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق الفكر فيه اذ كان لم يأت الاّ محولاً عن وجهه مرات لا مرة واحدة

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم في انسان اصبح له بمقام ملَك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من اقوى الادلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وامكانهُ اذ لا تتصرف به الاّ قوة غيبية لا عمل للانسان فيها بل هي تبدع ابداعها وتلقي عليه القاء . وليس كل من تعرض لها ادرك منها ولا كل من ادرك منها بلغ بها بل لا بدّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقي ابعد الامواج الكهربائية واقواها . وهذه القوة ان ارادت معاني الجمال اخرجت الشاعر وان ارادت كشف السر عن الاشياء اخرجت الاديب وان ارادت حقائق الوجود اخرجت الحكيم . فان كان الامر اكبر من هذا كله وكان امر تفسير الحياة وصب ازمان جديدة للانسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة او درجات في الرقي فهنا تكون الوسيلة اكبر من البصيرة فليس لها من قوة الغيب الاّ الوحي ويكون الغرض اكبر من الشاعر والاديب والحكيم فلا يختار الاّ النبي ثم لا يوحى اليه الاّ وهو في حيّز ساعة الوحي وحدها وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخالد ، وقريب من ذلك خلوة النابغة بنفسه في ساعة التوليد . فسر النبوغ من سرّ الوحي لا ريب في ذلك، وما اسهل سرّ الوحي وأيسر أمرهُ ولكن في الانبياء وحدهم وهنا كل الصعوبة ...
« ان تكون او لا تكون هذه هي المسألة »